**خلاصة محاضرة:**

**تفكيك الاستفراق: صورة السود في المتخيّل العرب**

**د. نادر كاظم**

*]د. أمير الأزرقي: ملاحظة للمحاضرين والمستمعين، عند الحديث عن "تفكيك الاستفراق: صورة السود في المتخيّل العربي" سيقتبس الدكتور نادر من نصوص أصلية شديدة العنصرية ومهينة وقد تتسبّب بعدم الارتياح حين سماعها، حيث أثّرت هذه الاقتباسات ولا تزال تؤثّر على صورة السود في المتخيّل العربي.[[1]](#footnote-1)[*

حين صدر هذا الكتاب في طبعته العربية الأولى في العام [[2]](#footnote-2)2004، استوقفتني نسويّة بحرينية، وأبدت لي إعجابها الكبير بالكتاب، ثمّ فجأة استدركت لتقول: "لكن، لو حصل وتقدّم رجل أسود للزواج من ابنتي فمن المستحيل أن أوافق؟!". قلت لها: "من حيث المبدأ، أنا لا أتدخّل في القناعات والمواقف الشخصية لأحد، فمن حقّك أن تقبلي هذا الزواج أو ترفضيه كما من حقّ أيّ أحد آخر أن يقبل تناول الباستا ويرفض البيتزا على سبيل المثال، كما لا يعنيني هذا التناقض بين نسويّة تطالب بتمكين المرأة ومساواتها مع الرجال، وترفض في الوقت ذاته مساواة السود مع الآخرين، ولكنّي فقط ألفت انتباهك إلى أنّ ما تتوهّمين أنّه قناعة وموقف شخصي (الأمر الذي يعني أنّه يستحقّ احترامنا) هو ليس كذلك"، قالت: "هذا أمر ليس بيدي، أنا فقط لا أستطيع تقبّل الأمر نفسيًّا"، قلت: "وهذا يؤكّد أنّه ليس موقفًا شخصيًّا، فأنت لم تكوّني هذا الموقف أصلًا، بل هو تكوّن قبلك، وأنت ضحية مثل غيرك من الذين تتحكّم فيهم تلك الصور النمطية التي تكوّنت عن السود في سياقات تاريخيّة معيّنة".

وسأحاول في هذه المحاضرة تقديم الخطوط العريضة لهذا الإرث الذي تكوّن قبلنا، وأصبحنا ضحاياه دون مساءلة لحجم عنصريته تجاه السود. وقبل أن أبدأ سأذكّركم بأشدّ النصوص الفلسفية من حيث عنصريتها تجاه الأفارقة. إنّه نصّ جورج هيغل[[3]](#footnote-3) الذي ورد في كتابه "العقل في التاريخ" عندما يتحدّث عن الأفريقي بوصفه الآخر المطلق، والإنسان الحيوان بكلّ همجيته وخروجه عن القانون، والذي نحتاج من أجل فهمه أن نتجرّد من كلّ احترام أخلاقي أو عواطف تجاهه لأنّه وجود مادّي محض يفتقر إلى النظام الأخلاقي والوعي، ولهذا فأفريقيا ما وراء الصحراء تقع كلّها خارج التاريخ الكوني. يقول هيغل: "ومن هذه السمات المختلفة يتّضح أنّ الشخصية الزنجية تتميّز بالافتقار إلى ضبط النفس، وتلك حالة تعجز عن أيّ تطوّر أو أيّ ثقافة، ولهذا كان الزنوج باستمرار على نحو ما نراهم اليوم، والرابطة الجوهرية الوحيدة التي وجدت ودامت بين الزنوج والأوروبيين هي رابطة الرقّ ولا يرى الزنوج أنّ هذه الرابطة شيئًا مشينًا لا يليق بهم ".

لنقارن بين هذا النصّ العنصري والكولونيالي بامتياز، وبين نصّ ورد في كتاب بعنوان "نخبة الدهر في عجائب البرّ والبحر،" وهو لكاتب عربي مسلم من القرن الرابع عشر/الثامن الهجري، وجاء قبل هيغل بخمسة قرون تقريبًا، واسمه شمس الدين الدمشقي. يقول بأنّ: "خطّ الاستواء مسكون بطوائف السودان في عداد الوحوش والبهائم، محترقة ألوانهم وشعورهم، منحرفة أخلاقهم وخلقهم...والإنسان المخلوق هناك جاهل شديد سواد البشرة، محترق الشعر، عاتي الخلقة، منتن العرق، منحرف المزاج، أشبه في أخلاقه بالوحش والبهائم... وعقول هؤلاء السودان سخيفة، وأفكارهم قاصرة، وأذهانهم جامدة (...)، والخُلق الذي يوجد في غرائزهم قريب مما يوجد في أخلاق البهائم من سجاياها الموجودة فيها بالطبع من غير تعلُّم... ولا يوجد منهم الشيء وضدّه كالأمانة والخيانة، والوفاء والغدر. ولم يوجد فيهم النواميس، ولم يبعث فيهم رسول؛ لأنّهم غير قادرين على الجمع بين الضدين. والشريعة إنّما هي أمر ونهي، ورغبة ورهبة".

هذا نصّ عنصري بامتياز، وهو نصّ نموذجي على ما أسمّيه هنا بـ"الاستفراق" **Africanism** العربي، أيّ ذلك التمثيل العربي للسود، والاهتمام المحموم بالتعرّف على أجناس السودان والزنوج ولأفارقة وثقافاتهم (أو لا ثقافاتهم) المتنوّعة، تمامًا كما كان الاستشراق في علاقته بالشرق. لقد تكوّن، في التراث العربي الوسيط، أرشيف مكتوب بالغ الضخامة حوّل الأفريقي إلى موضوع للمعرفة (واللامعرفة)، وكوّن خزّانًا ضخمًا من الصور النمطية عن السود منذ القرن الثامن الميلادي تقريبا حتّى اليوم. لقد صاغ كلٌ من الاستشراق و"الاستفراق" خطابًا متماسكًا وبالغ الثراء عن الآخر، لكنّه خطابٌ متخيّلٌ تشكّل من صور وتمثيلات وتحيّزات اكتسبت طبيعتها البديهية المزعومة بفضل علاقات القوّة المختلّة لصالح الغرب (في الاستشراق)، ولصالح العرب (في الاستفراق). وبفضل علاقات القوّة هذه أصبح الفاتحون والمستعمرون قادرين على رسم خطوط متشيّئة تفصل بينهم كذوات "نقيّة صافية" عن تلك الأعراق والثقافات الأخرى "الملوّثة".

يتأسّس نصّ شمس الدين الدمشقي على حيونة السود، وهي حيونة كوّنت الصورة الأمّ التي منها تناسلت كلّ الصور النمطية السلبية التي عرفها المتخيّل العربي عن السود. إنّ السود، عند الدمشقي، في عداد الحيوانات (الوحوش أو الحيوانات المتوحّشة والبهائم(، وينسحب عليهم ما ينسحب على الحيوانات من قبح طبيعي، وانحراف المزاج، وقصور عقلي، وعجز أخلاقي، وانعدام الدين لأنّ الحيوانات لا تحتاج إلى الدين بحكم أنّها عاجزة عن فهم الشيء وضدّه، الخير والشرّ .

ليس نصّ الدمشقي استثناء في التراث العربي، بل هو القاعدة، ولهذا ستجد مثل هذه التعبيرات التي تنمّط السود وتنظر إليهم على أنّهم حيوانات متوحّشة أو بهائم هائمة، تنتشر على كامل نصوص التراث التي تناولت السود. ومن النادر جدًّا أن تجد نصًّا عربيًّا من العصور الوسطى يأتي على ذكر أيّ شيء له صلة بالسواد دون أن ينطوي على تنميط سلبي تجاه السود.

لم يكن السود هم الآخرين الوحيدين الذين حوّلهم المتخيّل العربي إلى موضوعات أمام وصفه ونظرته الانتقاصية، لكنَّ ما يميّز تمثيلات السودان في هذا المتخيّل هو أنّها تتّسم بتواتر واطّراد واستفاضة لم يكن لها نظير لدى الآخرين. لقد احتفظ المتخيّل العربي بصور متباينة لكلّ من الصين والهند والفرس والروم أو الفرنجة والصقالبة والبلغار وغيرها، لكنّ أيًّا من هذه التمثيلات لم يكن بحجم تمثيلات السود التي تمتدّ على مساحة شاسعة من مدوّنات هذه الثقافة، كما أنّها لم تكن تمتلك تواترًا واطّرادًا استثنائيين منذ زمن بعيد حتّى العصر الحديث. ولئن أصبح من البديهيات القول بأنّ لجريان الزمن فعله في التمثيلات، ولتقدّم التاريخ تأثيره فيها، إلّا أنّ هذا لا يكاد ينسحب على الصور النمطية التي شكّلها المتخيّل العربي عن السود، فالمرء يشعر أنّه يقف أمام تمثيل راسخ ومتماسك و"لا تاريخي"، وكأنه يقاوم الزمن ويترفّع على تقدّم التاريخ وتغيُّر السياقات.

والدليل على هذا التواتر والاطّراد في تمثيلات السود في المتخيّل العربي أنّك لا تجد اختلافًا مميّزًا وذا شأنٍ في هذه التمثيلات بين ما كتبه مؤلّف في القرن الثالث الهجري وبين ما كتبه آخر في القرن الخامس أو السادس أو السابع أو الثامن حتّى مطلع القرن العشرين. لقد أصبح لهذه التمثيلات تقليدٌ ثابت مفروض على كلّ من يريد الحديث عن السودان أو الكتابة عنهم. وأصبحت لهذا التقليد لغته الخاصّة ومجازياته المميَّزة. وعلى هذا، فإنّ أيّ حديث يراد له النجاح، وأيّة كتابة يراد لها الذيوع والانتشار والقبول الجماعي، فإنّ السبيل إلى ذلك هو الالتزام بهذا التقليد، والتقيُّد بلغته ومجازياته. وحين يتعمّد أيّ حديث أو كتابة الخروجَ عن هذا التقليد الجماعي، فإنّه يعرّض نفسه للرفض والمواجهة والسخرية. وهذا ما حدث مع أبي العبّاس الناشئ الأكبر (293 هـ) وأبي العبّاس محمّد بن خلف بن المرزبان (309 هـ)، فهذا الأخير خالف العُرف في التأليف وخرج على الإجماع حين ألّف كتاب **"السودان وفضلهم على البيضان"**، فلم يلق غير السخرية والتهكّم، فجلال الدين السيوطي يقول فيه: "ولا أستكثر هذا عليه، فإنّه ألّف كتاب **"تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب**"، فإذا فضّل الكلاب على بني آدم، لم يكثر عليه أن يفضّل السودان على البيضان". وأمّا أبو العبّاس الناشئ فقد ألّف رسالة في **"تفضيل السود على البيض"،** وكانت العاقبة أن اُتهِّمَ بالجنون والهوس، ووصف السيوطي هذا التفضيل بمن "عمل مفاخرة بين الذهب والزجاج".

إنّ هذا التقليد في التأليف عن السود أو في الحديث عنهم، ومجموع الصور النمطية المتواترة في كلّ حديث أو كتابة عن هؤلاء البشر، هو ما نسمّيه هنا بخطاب "الاستفراق" العربي، أي هذه الطريقة في الرؤية، وهذا المجال من التأليف والتخيُّل الذي يكون فيه السود والزنوج الأفارقة موضوعًا للدرس والكتابة والحديث وإطلاق الأحكام القيمية وإشاعة الأوصاف المتكرّرة بشأنهم. وإذا استخدمنا مفاهيم ميشيل فوكو[[4]](#footnote-4) يمكننا القول بأنّ "الاستفراق" العربي إنّما هو ضرب من ضروب الالتزام بقواعد إنتاج الخطاب العربي عن السود وصيانته وتمثّله وتوزيعه على المستهلكين في الثقافة العربية الإسلامية. إنّه إذن خطاب حول السود له قواعده وضوابطه الخاصّة، وتوزّع على مجالات معرفية كثيرة، بحيث يتعرّض له الطبيب كما يتعرّض له الكلامي واللغوي والمحدِّث والفقيه والجغرافي والملّاح والمنجّم والمؤرِّخ والشاعر والقصّاص. ولا يختلف في هذا شمس الدين الدمشقي عن أبي زيد السيرافي وسليمان التاجر والطبري وابن رسته والمسعودي وابن حوقل والمقدَّسي وابن جبير وزكريا القزويني وابن خلدون وابن بطوطة وابن المقفّع والجاحظ وابن النديم وأبي حيّان التوحيدي والبيهقي والنويري والأبشيهي والقلقشندي. يختلف هؤلاء في الأسلوب ومجال التخصّص، لكنّهم يتّفقون في جوهر نظرتهم إلى السود. لم ينتقد أحد من هؤلاء النظرة الدونية إلى السود، ولم يخلُ حديث أيٍّ منهم من مجموع التمثيلات الشائعة والصور النمطية المتكرّرة عن السود. ولم يعترض أحدٌ منهم على وصف السود بالحيوانية، والتوحّش، والفسوق، والشهوانية البهيمية، والتخلّف، وسخف العقول، وتشوّه الخلق والخُلق، والهوس بالطرب.

والسؤال من أين جاءت هذه الصورة النمطية الأمّ عن السود (حيونة السود)؟ السؤال هنا ليس عن المقاصد من وراء هذه الحيونة، بل المرجعيات التي سمحت بمثل هذه الحيونة اللاإنسانية. هناك ثلاث مرجعيات مؤسّسة لذلك: المعنى الثقافي للإنسان، والمرجعية التوراتية التي تتحدّث عن لعنة إلهية حلّت بالحاميين السود، ونظرية الأقاليم السبعة ذات الأصل الإغريقي التي تعاملت مع الشمس كموقد كوني هائل ومع البشر كموضوعات مطبوخة (نيئة وناضجة ومحترقة(.

بالنسبة للمرجعية الأولى فإنّ الثقافة العربية أسّست فهما للثقافة قريب من الفهم الأنثروبولوجي الحديث، أي الثقافة كحدّ فاصل بين الإنسان والحيوان، بين ما هو طبيعي وما هو متعلّم ومكتسب. على هذا الأساس، نُظر إلى الدين واللغة والكتابة واللباس والقوانين وأنظمة الحكم والاقتصاد على أنّها حدود فاصلة بين الطبيعة والثقافة، بين التوحّش والتحضّر، بين الحيوان والإنسان. إنّ السود العراة والذين يفتقرون إلى الدين والشريعة والقوانين وأنظمة الحكم والاقتصاد ليس لهم من الإنسان سوى الهيئة ككائن حيّ يمشي على قدمين، وبتعبير نصير الدين الطوسي، فإنّ السود "لا يختلفون عن القرود إلا باستقامة القامة، بل إنّ البعض رأى أنّ القرود أكثر تقبّلًا للتعلّم والتدريب من الزنوج"!

وتظهر مرجعية التوراة فيما سمّي عربيا بالإسرائيليات، أي النصوص التوراتية التي تسرّبت إلى الثقافة العربية كمرجعية تفسير لكثير من قصص الأنبياء في القرآن. السواد، في هذه المرجعية، لعنة إلهية حلّت بذرّية حام بن نوح على إثر دعوة نوح على ابنه بالعبودية والسواد في حكاية توراتية معروفة.

وأمّا نظرية الأقاليم السبعة فهي نظرية جغرافية قديمة ترجع إلى الإرث البطليموسي الذي قسّم الأرض إلى أطوال وأعراض، وقسّم الأعراض إلى سبعة أقاليم، يبدأ الإقليم الأوّل من الجنوب، حيث السود والزنوج، وينتهي السابع في الشمال، حيث الصقالبة وهمج الشمال. تستحضر هذه المرجعية "مثلّث الطبخ" لدى ليفي شتراوس[[5]](#footnote-5) بطريقة مجازية، فإذا كان المرور من الطبيعة إلى الثقافة يتمّ من خلال "مثلّث الطبخ" بحيث ينتقل "النيء" إمّا ثقافيًّا فيصير "مطبوخًا"، وإمّا طبيعيًّا فيصير "متعفّنًا ". لقد استحضر هذا النموذج المطبخي ليرصد ظاهرة جغرافية "كونية" تعبّر عن مدى اعتدال الذات ومدى فساد تكوين الآخرين. فبالاستعانة بالتصوّر البطليموسي عن الأرض وأقاليمها المعمورة، تمّ تصوير الأرض كطعام والشمس كموقد نار ملتهبة. وبالنظر إلى عدم تعرّض هذه الأقاليم السبعة إلى هذا الموقد بدرجة متساوية، فإنّ النتيجة هي الحصول على أطعمة مختلفة ومتباينة، بعضها لم تمسّه النار بدرجة كافية فخرج نيئاً، وبعضها تعرّض لحرارة شديدة فخرج محترقًا نتيجة لملامسته الشمس على الرؤوس، وبعضها تعرّض لحرارة معتدلة فخرج مطبوخًا ناضجًا. وعلى هذه الاستعارة تمّ توزيع الأقاليم السبعة، فالإقليم الأوّل (الزنوج) محترق، والسابع )يأجوج ومأجوج) نيء، والإقليم الرابع (معظم بلاد الإسلام) معتدل وناضج، وبقية الأقاليم (الثاني والثالث والخامس والسادس( تتوزّع من حيث الاعتدال أو الانحراف، من حيث النضج أو الاحتراق بحسب قربها من الموقد الشمسي الهائل أو بعدها عنه .

هل كان الاستفراق محاولة تعرّف على الأسود الأفريقي أم تأكيداً على مدى جهلنا به؟ هل كانت معرفة بريئة أم متواطئة مع القوّة والسلطة ونزعة التوسّع على حساب أراضي الآخرين وتبرير استعبادهم كرقيق؟ هل كانت هذه العنصرية تشعر بتأنيب الضمير لكونها تقع على طرفي نقيض مع نظرة الإسلام الكونية إلى الإنسانية كأفضل مخلوقات الله خَلقًا وخُلقًا؟ هل تجدي معرفة الإنسان من دون تقدير قيمته كإنسان أوّلاً؟ هل كوّنت حضارة العرب تفوّقها خلال العصور الوسطى بإقصاء الآخرين في عالم الحيوانية والتوحّش والبربرية؟ وبتعبير **والتر بنيامين[[6]](#footnote-6)** فإنّه "**ليست هناك وثيقة من وثائق الحضارة دون أن تكون في نفس الوقت وثيقة من وثائق البربرية**"، هكذا وكأنّ البربرية هي قرينة الحضارة، وغريزة الشرّ والتدمير هي قرينة المعرفة التي تعتاش على الخطأ والظلم والقسوة و"عنف التحيّزات" ضدّ الآخر.

1. Die Vorbemerkung von Dr. Al-Azraqi habe ich aus der Videoaufzeichnung entnommen. Wir lesen hier nur eine Zusammenfassung des Vortrags (von mir für den Unterricht leicht verändert), die mir freundlicherweise von Dr. Amir Al-Azraqi, University of Waterloo, Canada zur Verfügung gestellt wurde. Das Video mit dem kompletten Vortrag finden Sie unter: <https://www.youtube.com/watch?v=JvRevi5jLXs> [↑](#footnote-ref-1)
2. تمثيلات الآخر: صورة السود في المتخيل العربي الوسيط. [↑](#footnote-ref-2)
3. Georg Wilhelm Friedrich Hegel [↑](#footnote-ref-3)
4. Michel Foucault [↑](#footnote-ref-4)
5. Claude Lévi-Strauss [↑](#footnote-ref-5)
6. Walter Benjamin [↑](#footnote-ref-6)